المشاركة الاجتماعية جوهر التنمية

قدرى حنفى *

المقدمـــة:-

المشاركة حق من حقوق المواطنة، شأنها شأن المساواة في الحقوق دون تمييز قائم علي الدين أو الجنس أو اللون أو المستوي الاقتصادي، أو الانتماء السياسي، أو الموقف الفكري، والحرية في الاعتقاد وممارسة الشعائر الدينية والتنقل، إلى جانب واجبات المواطنة التي تتضمن احترام القانون، و دفع الضرائب، و تأدية الخدمة العسكرية، و احترام حرية و حقوق الآخرين.

وتتضمن المشاركة بدورها العديد من الحقوق، مثل الحق في تنظيم حملات الضغط السلمي علي الحكومة أو بعض المسئولين لتغيير بعض القرارات أو البرامج، وممارسة كافة أشكال الاحتجاج السلمي المنظم مثل التظاهر والإضراب كما ينظمها القانون، والتصويت في الانتخابات العامة بكافة أشكالها، وتأسيس أو الاشتراك في الأحزاب السياسية أو الجمعيات أو أي تنظيمات أخري تعمل لخدمة المجتمع أو لخدمة بعض أفراده، وكذلك الترشيح في الانتخابات العامة بكافة أشكالها.

وتشير نتائج العديد من الدراسات النفسية الاجتماعية في بلادنا إلى انتشار "السلبية السياسية"، و"اللامبالاة الاجتماعية"، و"ضعف روح الفريق"، و "الفردية"... إلى آخر قائمة طويلة من الظواهر المشابهة التي يمكن إدراجها جميعا تحت عنوان واحد هو "معوقات المشاركة الاجتماعية".

وعلي أي حال فإن المشاركة السياسية فى عديد من الدول النامية لا تختلف عنها في بلادنا حيث تتصف بالشكلية وعدم الفاعلية إذ يجد الفرد نفسه خاضعا لقرارات وسياسات لم يسهم حقيقة فى صنعها، ومن ثم فإنها قد لا تعبر عن أماله ومطالبه.

ولقد تعددت التفسيرات المطروحة لظاهرة العزوف عن المشاركة السياسية فى الدول النامية حيث أرجعها البعض مثلا إلى ذلك التفاوت الاقتصادى - الاجتماعى الحاد فى توزيع الدخول والثروات ومن ثم التفاوت الملحوظ فى الأوضاع المعيشية وتآكل وجود الطبقة الوسطي مما يؤدي إلى جمود الحراك وتكريس عدم المساواة. وأرجعها البعض إلى انخفاض درجة الوعى السياسى، بمعني عدم معرفة المواطن

* أ.د. قدرى حنفى :أستاذ علم النفس بكلية الآداب جامعة عين شمس .

لحقوقه السياسية وواجباته وما يجرى حوله من أحداث ووقائع و بالتالى عجز المواطن عن تجاوز حدود الجماعات الصغيرة التى ينتمى إليها ليشارك خبرات ومشكلات المجتمع ككل. ويعتمد الوعى السياسى بهذا المعنى علي توافر عدة متطلبات علي رأسها توافر مناخ حر ديموقراطي يشمل المجتمع كله بكافة مؤسساته السياسية و التعليمية و الإعلامية.

المشاركة و ديمقراطية المجتمع

ورغم زخم المشاركة في الانتخابات وتزايد الاهتمام الجماهيري بالسياسة بعد ثورة يناير، فما زلنا في حاجة لتأكيد حقيقة أن هناك ارتباط وثيق بين المشاركة عامة وما تتطلبه من سيادة مناخ ديمقراطي، حيث لا ينبغي أن يقتصر الأمر علي المشاركة في ممارسة الحياة السياسية فحسب، بل إن المشاركة فى المجالات التي تبدو للوهلة الأولي بعيدة عن السياسة كمشاركة الفرد فى صنع القرارات فى نطاق الأسرة والمدرسة والجامعة والعمل وغيرها من المجالات الاجتماعية تلعب دورا حاسما في تشكيل اتجاهات الأفراد نحو النظام السياسى والعملية السياسية، ولعل المجال الذي لا يحظي منا باهتمام مناسب ونحن بصدد الحديث عن المشاركة هو مجال الطفولة.

إن تنشئتنا لأطفالنا تعد في حقيقة الأمر حجر الأساس في ممارسة المشاركة الاجتماعية في كافة المؤسسات التعليمية والسياسية والإنتاجية والإعلامية. ولما كانت العلاقات داخل الأسرة فى غالبية البلاد النامية تفتقد الديمقراطية ولا تشجع على المشاركة فقد كان لابد أن ينعكس ذلك على ممارسات الحياة السياسية فى ظل انتشار الخوف التقليدى من السلطة وما يترتب عليه.

إن مشاركة الفرد فى صنع القرارات فى نطاق الأسرة والمدرسة والجامعة، تعد بمثابة الحلقات المتصلة المتدرجة التي تمهد الفرد للمشاركة السياسية الكاملة. فليس من المتصور أن يظل الفرد بمنأي عن إبداء رأيه في شئون الأسرة ثم المدرسة ثم الجامعة، ثم نتوقع منه أن يكون مشاركا فعالا مهتما بشئون مجتمعه حين يكبر. إن مثل هذه المشاركة فى تلك المجالات التي قد لا تبدو سياسية، تضع الأساس لتشكيل اتجاهات الأفراد نحو النظام السياسى والعملية السياسية، بحيث يمكن القول إن المشاركة السياسية على نطاق واسع عادة ما تسبقها، وتصاحبها مشاركة واسعة فعالة فى هذه الميادين الاجتماعية.

الطفل والمؤسسة

تعد الأسرة بمثابة المؤسسة التدريبية التي يتلقي فيها الطفل الدروس الأولي في المشاركة الاجتماعية، فإذا ما كانت الأسر لا تشجع على المشاركة، فلابد وأن

ينعكس ذلك على الحياة السياسية فى شكل انخفاض معدلات المشاركة فى ظل انتشار الخوف التقليدى من السلطة وما يرتبط بها. إن العلاقة مع السلطة تنشأ أول ما تنشأ فى علاقة الفرد بالوالدين داخل الأسرة، بما تحمله هذه العلاقة من أنماط اجتماعية وثقافية وتاريخية للمجتمع الذى يعيش فيه الفرد. ومن ثم فإن مراحل الطفولة الأولي تشهد تكوين ملامح هذه العلاقة التي تلعب دورا كبيرا في تحديد أسلوب تعامل الفرد مع رموز السلطة فى المجتمع مستقبلا.

ولعل بداية انفتاح الطفل علي إمكانية المشاركة الفعلية تبدأ منذ مرحلة الطفولة المبكرة، أي في سن ٢ - ٥ سنوات، وهى المرحلة التى تقابل مرحلة الحضانة ورياض الأطفال، وإن كان الإعداد لها يبدأ قبل ذلك. وترجع أهمية هذه المرحلة إلى ما يميزها من تحول الطفل من الاعتماد الكامل على الأسرة إلى الاعتماد على الآخرين والتفاعل معهم. إن انتقال الطفل من المنزل إلى المؤسسة التعليمية، إنما يمثل فيما نري بداية تشكيله السياسي بالمعني الدقيق.

والمؤسسة التعليمية شأنها شأن الأسرة تعد جزءا من نسيج المجتمع، يصوغها علي صورته، بحيث لا نستطيع أن نتصور أو حتي نحلم بمدرسة ليبرالية في مجتمع محافظ، أو مدرسة تسودها القيم الديموقراطية في مجتمع ديكتاتوري شمولي. إن تنوع أنماط التنشئة الاجتماعية الأسرية التي تسود علاقات الطفل بأسرته في البيت، لا يصبح أمامها – إذا ما تعارضت مع ما تلقاه في الأسرة- سوي الاستسلام لذلك النمط الجديد الموحد من التنشئة الاجتماعية "القومية" التي تعيد صياغة هوية الطفل من خلال السلطة المدرسية وما تفرضه من نظم و قيم.

ولا يعني ذلك بحال أن تلك المؤسسة التعليمية الجديدة سوف تنفرد وحدها بصياغة الطفل وفقا للمواصفات التي تستهدفها، فقوي المعارضة والتحدي قائمة دوما. ففي نفس هذه الفترة التي يبدأ فيها الطفل تدريجيا فى الاعتماد على نفسه والانفصال عن الأسرة والانخراط فى المؤسسة العلمية، تظهر مؤسسة أخري بالغة التأثير، بل إنها قد تفوق في تأثيرها بقية المؤسسات قاطبة، وهي مؤسسة الرفاق أو "الشلة". فمع خطوات الطفل الأولي داخل "أسوار" المؤسسة التعليمية، ومن داخل نسيج شبكة العلاقات الرسمية المنظمة صارمة التحديد، تبدأ خبراته الأولي في بناء علاقات صداقة حرة؛ بمعني أنه يقيمها بنفسه وينسحب منها بنفسه دون أن تكون مفروضة عليه من السلطة الوالدية.

الطفل و آليات إدارة الصراع

الصراع قدر البشر منذ وجدت الحياة، ولإدارة الصراع سبل شتي لعل أبرزها: أسلوب استخدام القوة بدنية كانت أو مادية، وأسلوب التفاوض وما يندرج تحته من

بناء التحالفات والجبهات والمقاومة المدنية. ولكن قد يبدو للوهلة الأولي أن تعبير إدارة الصراع بما يتسم به من غلظة يبعد عن مجال الطفولة التي ألفنا أن نصفها بالرقة والضعف. وفيما نري فإن الأمر ليس كذلك علي الإطلاق، بل علي العكس تمامًا. ولقد أتيحت لي شخصيا فرصة الممارسة العملية في مجالين من مجالات علم النفس تبدو الشقة بينهما بالغة: مجال التنشئة الاجتماعية للأطفال، ومجال التفاوض السياسي. واتضح لي من مجمل الممارسة في المجالين أن الطفل يمتلك بحكم ضعفه الفيزيقي قدرة هائلة في مجال محدد من مجالات إدارة الصراع هو مجال التفاوض.

إن حقائق علم التفاوض السياسي تؤكد أنك لا تستطيع أن تحصل من خلال المفاوضات علي أكثر مما تسمح به موازين القوي الفعلية، فمهارة التفاوض ليست قوة سحرية تمكن المفاوض الماهر من الحصول علي ما يريد كاملا ولا في كل وقت. ورغم صحة تلك الحقيقة، فإنه كثيرًا ما تسيطر علي المفاوضين السياسيين - خاصة في بداية خبراتهم بالمجال - فكرة مؤداها أن موازين القوي الفعلية إنما تتمثل فحسب في القوي المادية. ومن ثم فإنهم يتوجسون شرًا حين تضطرهم ظروفهم العملية للإقدام علي التفاوض مع طرف يتفوق عليهم في مجال موازين القوي كما يفهمونها. ولذلك فإن برامج إعداد وتدريب المفاوضين لا تخلو عادة من جانب يتناول هذه القضية، قضية التفاوض من موقع اختلال موازين القوي المادية لصالح الطرف الآخر. ولعل حالة التفاوض من موقع اختلال تلك الموازين تتجسد في حالة إدارة الطفل لصراعه من أجل تحقيق رغباته. وهي الحالة الجديرة بالتأمل و استخلاص الدروس إذا ما كنا بصدد انتزاع حق المشاركة الاجتماعية و بقية حقوق المواطنة.

الطفل البشري هو أضعف المخلوقات قاطبة، فهو الكائن الوحيد الذي لا توجد أمامه أية فرصة للاستمرار في الحياة إذا لم يوجد بين من يقومون عليه ممن هم أكبر منه. إنه يولد غير مزود بأي من أدوات الحفاظ علي الحياة. عاجز عن رد العدوان، عاجز كذلك حتي عن البحث عن طعامه. إنه يولد وليس لديه سوي عدد محدود من ردود الفعل الأولية البسيطة يمكن حصرها في المص والبلع والبكاء والنوم. ولكنه يولد مزودًا بسلاح هائل يستطيع أن يستثمر به تلك الإمكانات المتواضعة ويتمثل ذلك السلاح في قدرته غير المحدودة علي استثمار تلك الإمكانات في التعامل مع أولئك الذين بيدهم مقادير حياته.

ولنحاول معًا استيعاب مقتطفات من دروس تلك الممارسة الذكية لإدارة الصراع من خلال رصد وتحليل بعض المواقف العملية التي صادفتني خلال ممارستي في مجال التنشئة الاجتماعية للأطفال.

الموقف الأول

إن أول أسلحة الطفل يتمثل في البكاء، وغني عن البيان أنه سلاح بالغ الضعف إذا ما قورن بما لدينا نحن الكبار من أسلحة. ورغم أن البكاء يكون في البداية استجابة طبيعية تلقائية للإحساس بالألم البدني الناجم عن الجوع أو البلل أو ما إلى ذلك، فإنه سرعان ما يتحول لدي الطفل إلى سلاح لا علاقة له البتة بأي نوع من أنواع ذلك الألم البدني، ليصبح أداة يضغط بها الطفل علي الكبار لكي يحققوا له ما يريد مما لا يستطيع تحقيقه بنفسه. ولو تأملنا أطفالنا لوجدنا أنهم يطورون تلك الأداة البسيطة وينوعون في تشكيلها وفقًا لما يقتضيه الموقف. فالبكاء يستخدم أحيانًا لإزعاج من بيدهم الأمر بحيث قد يضطرون إلى تلبية المطالب إيثارًا للهدوء وتخلصًا من الإزعاج. وقد يستخدم البكاء أحيانًا أخري لاستدرار عطفهم مما قد يدفعهم إلى تلبية المطلب إشفاقًا وحبًا. وقد يستخدم البكاء في أحيان ثالثة للعتاب والتحذير من تكرار الفعل المرفوض كترك الطفل وحيدًا. ونغمة البكاء تختلف من حالة لأخرى ومن موقف لآخر، فهي تقترب من الصراخ في الحالة الأولي، في حين أنها قد تكون إلى الأنين أقرب في الموقف الثاني، وهي قد لا تعدو أن تكون نهنهة في الموقف الثالث.

أذكر موقفًا لطفل استخدم فيه بمهارة فائقة تلك النغمات الثلاث في ثلاثة مواقف متتالية. لقد اضطرت أمه لحمله إلى منزل جدته صباحًا لكي تذهب إلى عملها. وما أن وصلا واستدارت متجهة للباب حتي انطلق صراخه احتجاجا آملا أن ينجح في إثنائها عن قرارها. ولكن لم يكن بد من أن تتركه الأم في قمة تزايد صراخه إلى أقصاه. وبعد فترة وجيزة أدرك بعدها أنه لا أمل في تراجعها عن قرارها فقد نفذته بالفعل. ولم يلبث آنذاك أن تلفت صوب جدته وتحول صراخه إلى نوع من الأنين مختلطا بكلمات تحبب للجدة مشفوعة بقائمة من طلبات الحلوي واللعب المفضلة إلى آخره. وانطلق الطفل يلعب إلى أن عادت الأم. وإذا به يعاود البكاء هذه المرة ولكنها النهنهة كما لو كان يعاتبها محذرًا من تكرار ذلك.

وإذا ما حللنا هذا الموقف مستخدمين لغة التفاوض التي يعرفها الكبار لاستطعنا أن نتبين بسهولة أن الطفل في هذه السن المبكرة - سن ما قبل المدرسة - قد استوعب قيمة ما لديه من أداة لإدارة الصراع، وطور تلك الأداة لتتخذ أشكالًا مختلفة، واستخدم كل شكل في توقيته المناسب، فللصراخ وقت يختلف عن وقت الأنين

وللنهنهة وقتها المناسب كذلك. ومن ناحية أخري فقد توافرت لديه المرونة الكافية للإقلاع عن استخدام سلاح لم يعد مناسبًا للموقف، فلم يستمر في ممارسة شكل محدد من أشكال البكاء بعد أن أدرك بشكل واقعي عدم جدواه. بل إنه استوعب أيضًا أهمية الاستفادة من إمكانية تعديل الطلبات، فلا بأس من الحصول علي بعض اللعب والحلوي وحب الجدة أيضًا، كثمن معقول للكف عن البكاء، ولكن تقاضيه ثمنًا للتهدئة لا ينبغي أن يفهم علي أنه تنازل عن المطلب الأساسي ومن هنا كانت نهنهة العتاب.

الموقف الثاني

طفلنا في هذه الحالة أكبر قليلا. يعيش في كنف والديه. الأم لا تعمل، والأب يعمل نهارًا في جهة حكومية، وله عمل آخر بعد الظهر يعتمد عليه لاستكمال ما يحتاجه البيت من مصروفات. ولذلك فإنه يعود من عمله الحكومي ليتناول غذاءه بسرعة ثم يغفو لفترة محدودة حتي يستطيع الذهاب إلي عمله الثاني نشطًا. وخلال هذه الفترة المحدودة ينبغي أن تحافظ الأم بصرامة علي هدوء المنزل تمامًا، وحين كانت تغفل عن الالتزام بذلك لسبب أو لآخر كانت تتلقي منه عتابًا قد يكون حادًا.

ذات يوم بدا للطفل أن سنه قد أصبح مناسبًا للنزول إلى الشارع بمفرده. وبدأت مفاوضاته مع الأم منذ الصباح الباكر بعد خروج الأب للعمل وانهماك الأم في الأعمال المنزلية المعتادة. وكان الرفض قاطعًا في البداية :

- " إنك مازلت صغيرًا "
- " لقد كبرت. فضلاً عن أنني أري بعيني أطفالا في مثل سني يسيرون في الشوارع بمفردهم"
- " إنهم يختلفون عنا لا شأن لنا بهم. ثم إن أحدًا لا يمشي في الشارع دون أن يريد شيئًا محددًا"
- " حسنًا إنني أريد شراء حلوي من البقال علي الناصية"
- " أطلب من والدك أن يأتيك بما تريد"

ويستمر الطفل دون ملل في تفنيد حجج الأم إلى أن تضيق به فيبدأ في البكاء احتجاجًا علي رفض مطالبه. وتظل الأم عند موقفها، وبعد فترة يكف الطفل عن البكاء وينصرف إلى شأن آخر. وتظن الأم أن طفلها قد تخلي عن مطلبه. ولكنه تأجيل إلى حين.

لقد عاد الأب من عمله الصباحي، وتناول غذاءه، وبدأ غفوته التقليدية، وانصرفت الأم إلى نشاط منزلي لا يستدعي حركة ولا صوتًا. وإذا بالطفل يقترب منها في هدوء، ليتبادل معها حوارا هامسًا :

- "أرجو يا أمي أن تسمحي لي بالنزول إلى الشارع"
- " أنت تعرف أنني لا أوافق، الشارع خطر"
- " لن أعبر الشارع سأسير علي الرصيف إلى أن أصل إلى البقال علي نفس الرصيف"
- " حبيبي إنني أقلق عليك ولا يمكن أن أوافقك علي ذلك"
- " فيم القلق ؟ تستطيعين أن تنظري إلى من الشباك لتراقبيني"
- " قلت لا . كف عن مناقشة هذا الموضوع"

ويبدأ الطفل في نشيج خافت كما لو كان نذيرًا بصراخ قادم تعرف الأم مدي ما يسببه من إزعاج. وتتورط الأم في أن تعده بأنها ستفكر في الأمر، ويبادرها محتضنًا إياها شاكرًا لها أنها سمحت له، مطالبًا إياها أن تقسم علي ذلك. ولا تجد الأم القدرة علي رفض هذا الحب الجارف، فتقول له "إنشاء الله" ويؤكد هو علي التزامها بوعودها مكررا تأكيد حبه لها .

وحين يستيقظ الأب تروي له الأم ما حدث ويتفقا علي عدم الاستجابة لهذا المطلب حتي لو صرخ الطفل وضاعت غفوة الأب. وكرر الطفل محاولته، وارتفع النشيج إلى بكاء، وإذا به يفاجأ بأن ثورة الأب تتجه هذه المرة إليه وليس إلى الأم. ويصمت فورًا. ولكن أيضًا إلى حين.

لقد أدرك الطفل أن سلاح البكاء قد فقد فعاليته. ولكنه لم ييأس. لقد لاحظ عبر سنوات عمره الصغير أن والده لا ينحني ليقبل يد أحد إلا يد الجدة، وأن أحدًا لا يخاطب والده بلهجة تحمل صيغة الأمر إلا هذه الجدة. وانتهز الصغير فرصة وجوده مع جدته ليعبر لها أولاً عن حبه الشديد لها، ثم يشكو لها ما يعانيه من إصرار والده علي حرمانه من متعة المشي في الشارع. وتتعاطف الجدة معه وتعده بالتدخل لدي والده.

لن نمضي طويلًا في تتبع مغامرات صغيرنا في إدارته لصراعه من أجل تحقيق هدفه. ولننتقل إلى تحليل مجريات هذا الموقف مستخدمين مرة أخري لغة التفاوض التي يعرفها الكبار.

لقد تميزت إدارة الصغير للصراع بما تطلق عليه برامج تدريب المفاوضين "اختيار الوقت المناسب للتقدم بالطلبات وبدء التفاوض" ، ويؤكد علم التفاوض السياسي أن اختيار التوقيت المناسب يقتضي دراسة الاحتياجات الحقيقية للطرف الآخر دراسة جيدة بحيث يسهل اختيار الوقت الذي يكون فيه الطرف الآخر في أضعف حالاته بحيث يسهل ممارسة الضغط عليه. لقد اختار طفلنا وقت انشغال الأم، ووقت نوم الأب للتقدم بطلباته وممارسة ضغوطه.

وتميزت إدارة الصغير للصراع أيضًا بما يعرف بفن التحالف. وقد استطاع طفلنا أن يتحالف مع الجدة ليضغط من خلالها علي الأب. بل إنه استخدم أيضًا ما يعرف في فن التفاوض بأسلوب التوريط وانتزاع الالتزامات حين بادر بإعلان تفسيره لوعد الأم له بالتفكير في الموضوع، باعتباره قبول من حيث المبدأ، بل والتزام بتلبية المطلب.

ماذا عنا نحن الكبار؟

لقد اكتفينا بهذين الموقفين فحسب من بين العديد من المواقف التي تكشف عن حقيقة مؤداها أن الأطفال يمارسون بالفعل مهارات إدارة الصراع بالتفاوض منذ البدايات الأولي لحياتهم. إنهم يمارسون في البداية العديد من أساليب التحالف والتفاوض، والرفض اللفظي المعلن، والاحتجاج السلبي بكافة مظاهره التي تصل بالأطفال أحيانًا إلى ممارسة أشكال جنينية من "العصيان المدني" كرفض التحرك مع عدم تنفيذ التعليمات، وكالامتناع عن تناول الطعام إلى آخره. ولكنهم للأسف لا يستمرون كذلك فنحن الكبار إيثارا لهدوئنا واستقرار مجتمعاتنا علي ما هي علي، ونفورًا من دفع ثمن التغيير، نتكاتف لدفع أطفالنا إلى ما يتنافي مع فطرتهم التلقائيّة الطبيعيّة. الطفل بفطرته محاور، ندفعه إلى الصمت. الطفل بفطرته متسائل، ندفعه إلى تقبل التلقين. الطفل بفطرته مفاوض فعّال، ندفعه إلى الجمود العدوانيّ . الطفل بفطرته تلقائي، ندفعه إلى التصنع والمداهنة، الطفل بفطرته ميّالٌ للمشاركة ، ندفعه إلى الانطواء والتوجس من الآخرين . ولم يكن غريبًا بعد كل ذلك أن تؤدّي تنشئتنا لأطفالنا إلى حيث لا يجد الطفل أمامه لمواجهة مواقف الحياة إلا واحدًا من سبيلين لا ثالث لهما: إمّا التصدّي بالعنف لإزالة ما يحول بينه وبين ما يريد تحقيقه، ذلك إذا ما استطاع، فإذا لم يستطع، وكانت العقبة أقوي من إمكاناته؛ لم يعد أمامه إلا السبيل الآخر وهو الاستسلام بلا شروط: هجرةٌ فعليّة ، أو مرضًا نفسيًا ، أو انطفاءًا سلبيًا.